

ليلي الأخيلية حياتها وشعرها

Laila Al Akheeliyya Her Life & Poetry

عندليب رياض (باحثة الدكتوراه في قسم اللغة العربية وأدابها، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد)
دسلمي شاهدة (الأستاذة المساعدة في قسم اللغة العربية وأدابها، الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد)

Abstract

The Arabic literature is one of the oldest literatures in the world. This literature has been there for over fifteen centuries. Arab women have a long history of literary endeavor.

Layla Bint Abdullah Al-Akheeliya was a well-known Arab poetess of Asar Umayya. She was prominent for her poetry, eloquence, and her strong and attractive personality.

Her poems include elegies for her lover Tawba ibn Humayyir .

She was born to the Banu 'Uqayl section of the Banu 'Amir Tribe, coincidentally Qays ibn al-Mullawah and Layla Al-Aamiriya belonged to the same tribe. But unlike them she was a city inhabitant not a Bedouin. She had access to the courts of the Umayyas mainly because of her strongpersonality.

She belongs to the rare early female Arab poets who had the courage to speak of her love publically. Her poetry is particularly related to Tawba Bin Al-Humayyir. Tawba and Layla had fallen in love with each other. Tawba sent a proposal for marriage with Layla her father refused and she was married off to another man. Later, Tawba was assassinated, and this incident motivated the laments of Layla that gave her even more courage. In spite of that love poetry was not her only category as her poems were diverse in subjects however she ignored politics. Here work includes exchanges of exaggeration with Nabigha Al-Ja‘di and Ḥumayda bint Nu‘mān ibn Bašīr. Her poetry was frequently compared to that of Al-Khansa but Layla Al-Akheeliya had more various imagery, not restricted to the desert, and used more than one genre, not constricted herself to one subject. Her poetry is replete with philosophical wisdom but she also used her poetry for income, and her poetry provided her with links to rich and financially strong people. Layla Al-Akheeliya died in 704 near the city of Samawa in Iraq during traveling.

التقديم

تبدأ صلتي بهذا الموضوع من رغبي في التعرف إلى الأدب النسائي، وتبع اتجاهاته، ومن ثم الوقوف على دور المرأة العربية في عصور متعددة. فقد كان في تراثنا العربي المرأة التي رسم صورتها الرجل فغدت أشبه بالأسطورة، كما كان فيه المرأة الواقع؛ لذلك رأيت أن أكتب عن ليلى الأخيلية، المرأة الشاعرة، التي عاشت في حقبة من حقب التاريخ العربي الإسلامي اشتغلت على صراعات سياسية وقبلية ودينية واجتماعية، وذلك في النصف الأول من تاريخ الدولة الأموية.

فقد كان لليلى دور سياسي قبلي، فوفدت على الخلفاء والأمراء والقادة، وعبرت عن جانب من موقف قبيلتها بني عامر، من الصراع الدائر على الحكم. كما كان لها دور اجتماعي أدبي حين غدت تهاجي كبار شعراء هذه الحقبة التاريخية أمثال: النابغة الجعدي وتميم بن أبي بن مُقبل، وتتّصل بشعراء آخرين أمثال: سوار بن أوفي وحميد بن ثور وأوس بن مغراة والغجير السلوبي وغيرهم.

أما الدور الاجتماعي الأدبي الذي قامت به ليلى فقد تمثّل في صيتها المتينة بالشاعر توبة بن الحمير الخفاجي الذي أحبته حبًّا عذرياً، وكلاهما من قبيلة عامر، ولما مات رثته بحرقة، فشكّلت ظاهرة فريدة من ظواهر الشعر العربي، إذ كنّا نجد المرأة العربية ترثي أخاهما أو زوجها أو ابنتها، أما ليلى فقد رثت حبيبها الذي قتل فطالبت بالثار له، وخلى ذكره في قصائد، مما جعل أحد الباحثين يشك في وجود هذه المرأة لاعتقاده أن المجتمع العربي آنذاك لم يكن ليسمع لامرأة أن تقول مثل هذا الشعري حبيب لم تكن زوجاً له.

بحفي يشتمل على النقاط الأربع حول حياة الليلى حيث ذاتيةً وأدبيةً: ذكرت قبل ذلك اسم الليلى ونسبيها وصفتها، ويأتي على مناقشة خبر زواجهما، وأخيراً يعرض لوفاتها من حيث الزمان والكيفية والمكان.

بيّنت صلة ليلى بأعلام عصرها، صيتها بتوبة بن الحمير الشاعر الذي أحبته، ثم سائر الشعراء الذين اتصلت بهم في حياتها، وصيتها بالخلفاء والأمراء والقادة في الدولة الأموية وطبيعة تلك الصلات، وعلى الأخص مكان بينها وبين عبد الملك بن مروان والحجاج ابن يوسف الثقفي. ذكرت في هذا الجزء جماعة من القدماء والمحدين في شعرها وطبيعة عنایة هولاء به، ومحاولات تقييمهم له، وكيف أن كثيراً منهم قرئها بالخنساء فمهم من فضلها عليها، ومنهم من جعلها دونها، كما أن ذكرها ارتبط عند آخرين بذكر كبار شعراء العربية وفحولها.

في الآخير يتناول بحفي موضوعات شعر ليلى مثل المدح والهجاء والفخر والرثاء.

ليلى الأخيلية اسمها ونسبيها:

تجمع المصادر القديمة التي عرضت لذكر هذه الشاعرة أو ترجمت لها على أن اسمها الأول هو ليلى، كما تجمع على نسبتها إلى جدها الأعلى الملقب بالأخيل، فيكون اسمها الذي اشتهرت به وأجمعت عليه المصادر دون خلاف هو (ليلى الأخيلية) إلا أن الخلاف يقع بين هذين الأسمين في سلسلة نسبيها، بزيادة أو نقصان أو اختلاف في الترتيب.

إن من أقدم الكتب التي وصلت إلينا، ويرد فيها ذكر لها باسمها الذي اشتهرت به هما كتاباً (جمهرة النسب) للكلبي و(فحولة الشعراء) للأصممي¹ أما أقدم كتاب فصل القول في حياتها وأخبارها مع توبة فقد يكون كتاب الزير بن بكار الموسوم "بـ(أخبار توبة بن الحمير ولilyli الأخيلية)" الذي أشار إليه ابن النديم في (الفهرست) وياقوت الحموي في (معجم الأدباء)² ولا ندرى كيف جاء ذكر اسمها ونسبيها فيه على وجه التحديد؛ لأنّ يد الدهر قد عدت على الكتاب فلم نظفر به.

أما ابن قتيبة فهو يهتم بأخبارها وبعض أشعارها في كتابة (الشعر والشاعر) ويورد اسمها بنسبيتها إلى جدها الأخيل غاضباً الطرف عن ذكر اسم أبيها وما علاه حتى يصل إلى الأخيل، بيد أنه يذكر تفصيل نسبيها في موقع آخر عندما يتحدث عن توبه بن الحمير، فيقول هي "لily بنت عبد الله بن الرحالة بن كعب بن معاوية، ومعاوية هو الأخيل بن عبادة، منبني عقيل بن كعب"³ وكان الكبي قد ذكر سلسلة مخالفة لهذه عندما قال عنها "لily بنت حذيفة بن شداد بن كعب بن معاوية بن عبادة بن عقيل، ويقال: لily بنت الرحالة، قال الكلبي: فلا أدرى: أهو حذيفة أم ماذا"⁴

ويذهب صاحب كتاب (بلاغات النساء) أحمد بن أبي طاهر بن طيفور إلى أن اسمها "لily بنت الأخيل بن ذي الرحالة بن شداد بن عبادة بن عقيل"⁵ ولعله بذلك ينسها إلى جدها ولا يقصد أن الأخيل هو والدها، إذ لم يقل أحد بهذا، ونجده يضع كلمة (ذا) قبل اسم الرحالة ويتبعه بذكر شداد. مما يقوّي أن يكون الرحالة هنا هو حذيفة كما تسأل الكلبي.

أما أبو الفرج الأصفهاني فقد قدم لنا ترجمة مسماة للشاعرة، واسترسل في ذكر أخبارها، واعتنى بذكر نسبيها فقال:

"هي لily بنت عبد الله بن الرحالة، وقيل ابن الرحالة، بن شداد بن كعب بن معاوية، وهو الأخيل، وهو فارس الهرّار، ابن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة"⁶ فلم يزد على ما ذكر ابن قتيبة إلا شداداً، ثم أكمل سلسلة النسب حتى وصل إلى عامر بن صعصعة.

ونجد المرزباني في (معجم الشعراء) يتبع الكلبي في ذكر حذيفة بن كعب بن معاوية⁷ في حين يسقط الحصري القيرواني صاحب (زهر الآدب) شداداً من النسب و يجعل كعباً بعد عبد الله وقبل الرحالة، فيكون الاسم عند "لily بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرحالة بن معاوية بن عقيل بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة"⁸

لكن ابن حزم الأندلسي يجعل من حذيفة أباً لها متابعاً الكبي ومن نقل عنه ويؤكد أن كعباً هو الأخيل وليس معاوية، وليس من شك في أنه نقل عن الكبي إذ بينهما تطابق في السلسلة إلا أن ابن حزم يضع بعد شداد بن كعب (ذا الرحالة) وما دون ذلك "فإنه يذكر كلام الكبي"⁹ وعن ابن حزم أخذ ابن ميمون¹⁰ والقلقشندي¹¹

بعد هذا العرض لما ورد عند القدماء من ذكر نسبيها نجد أن أقدم مصدر ذكرها هو الكلبي الذي يمكننا اعتماده بحيث يكون اسمها لily بنت حذيفة أو عبد الله وقد يكون اسمه الرحالة أو ذا الرحالة، ابن شداد بن كعب بن معاوية بن عبادة بن عقيل. ونكون بذلك قد استرشدنا ببعض المصادر الأخرى" وقد حذفنا الرحالة أو ذا الرحالة من أن يكون مستقلاً عن حذيفة أو عبد الله لأننا نميل إلى القول بوجود ثلاثة أسماء بين لily و معاوية فقط؛ إذ ذكرت المصادر أن معاوية هو فارس الهرّار أو الهرّار أو الهرّاز"¹² قد أدرك الإسلام "ووفد على الرسول، صلى الله عليه وسلم، وله صحبة"¹³ وإذا كان كذلك فلا بد من اختصار السلسلة بينه وبين لily قدر المستطاع، فهي ماتت في الأغلب ما

بين عامي 86 و 96 هـ، وقد تكون ولدت مع بداية الدعوة الإسلامية. وليس من السهل أن تجتمع هي ووالد جدتها وإن أمكن أن تجتمع بجد جدتها في حياته.

هي ليلي بنت عبدالله بن الرحالة بن شداد بن كعب بن معاوية الأخيلية من بني عامر بن صعصعة. وكانت تسمى بـ(الرحالة) وذلك لأن آخر أجدادها كان يعرفـ(بالأخيل) والأخيليون يننسبون إلى قبيلة بني عامر، وعرفت قبيلتهم بأبيهم كانوا من عشاق العرب، كما كانت من أولى القبائل التي دخلت الإسلام، وواجهتـ في سبيل نشر لواء الدين الجديد. وقيل اسم جدتها كعب

بن حذيفة بن شداد، وسميتـ(الأخيلية) لقولها أو قول جدتها، من أبيات¹⁴

نَحْنُ الْأَخِيلُ مَا يَزَالُ غَلَمَانًا-----حتى يدب على العصا مشهورا

وقال العيني:

"أبوها الأخيل بن ذي الرحالة بن شداد بن عبادة بن عقيل، فيسمى بذلك. وهي من أهم شاعرات العرب المتقدمات في الشعر من شعراء الإسلام ولا يتقدمها أحد من النساء سوى الخنساء. وهي شاعرة عربية ذكية فصيحة بلغة حسنة الإنشاد، اشتهرت بأخبارها مع توبية (ت 674هـ) بن الحمير. فهي كانت أول شاعرة تقف أمام الخلفاء معاوية وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف".

أما ما نجده عند داود الأنطاكى في (تزيين الأسواق) من خبر عن أبيها، فهو كما يبدو أخذ السلسلة عن ابن حزم ثم جعل أباها رئيساً لبني الأخيل، لأن هذا شأنه مع كل المحبين الذين يسلى سمعاً به بقصصهم فقد قال: "وكان رئيس بني الأخيل حذيفة بن شداد بن كعب وكان له ابنة قد شاع في العرب ذكرها..."¹⁵

إن ليلي الأخيلية شاعرة مخضرمة بين صدر الإسلام والعصر الأموي؛ "لكتها عاشت أكثر حياتها زمن الأمويين؛ لأن أكثر أخبارها متصلة بهذه المرحلة، وقد تكون ولادتها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حدود السنة الخامسة عشرة للهجرة (15هـ-636م)، وذلك بترجمي أنها تركت شعراً ترثي به الخليفة عثمان بن عقان رضي الله عنه الذي كانت وفاته سنة (35هـ-655م) وهذا الشعر لا يصح أن تكون قد قالته دون العشرين، ومما قالته ترثي الخليفة عثمان بن عقان رضي الله عنه، وتصف مكارمه وتذكر مصيبة الأمة به، وتندعو إلى التقى"¹⁶ وقبول وعد الله:

أَبَعْدَ عُثْمَانَ تَرْجُو الْحَيْرَ أَمْتُه-----وكان آمنَ مَنْ يَمْسِي عَلَى سَاقِ

خَلِيفَةَ اللَّهِ أَعْطَاهُمْ وَخَوَلَهُم-----ما كانَ مِنْ ذَهَبٍ جَمِّ وَأَوْرَاقٍ

فَلَا تَكُنْ بِبِوْعَدِ اللَّهِ وَأَرْضَنَ بِه-----وَلَا تُوكِنْ عَلَى شَيْءٍ بِإِشْفَاقٍ

وَلَا تَقُولَنْ لِشَيْءٍ سَوْفَ أَفْعُلُه-----قَدْ قَدَرَ اللَّهُ مَا كُلُّ أَمْرٍ لَاقِ¹⁷

صفاتها وشكلها:

تفاوت المصادر القديمة فيما بينها في العناية بذكر صفاتها وشكلها، فقد يهتم راوي الخبر بذكر صفة من صفاتها ليؤكّد للسامع صدق مقولته، ودقّته في النقل، ولكنّ بعض رواة شعرها وأخبارها لم يلتفتوا إلى ذلك البتة.

أول ملمح شكري لها نعثر عليه في كتاب (بلاغات النساء) في الخبر المروي عن الزبير بن بكار أنه، قال حدثني يحيى بن مقدار الرافعي عن عمه موسى بن يعقوب قال دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فرأى عندها امرأة بدوية فأنكرها، فقال: من أنت؟ قالت: أنا الوالهة الحزى ليلي الأخليّة¹⁸ وفي تمام الخبر أنها ثبتت فجلسَت على راحلتها، فهي بدوية المظهر تثبت على الراحلة وقد يكون أنكرها الأمير لأنّها ليست من أهل دمشق.

ويؤيد بروز هذه الصفة فيها ما يرد في خبر قدومها على الحجاج، إذ يقول أذنه "أصلح الله الأمير بالباب امرأة تهدى كما يهدى البعير الناد، قال: أدخلها"¹⁹ فعلل الأذن شهباً بالبعير الناد أي الشرود- لما رأى فيها من مظاهر البداءة.

بيد أن تلك الصفة لم تكن تنفي عن ليلي الحسن والجمال فقد جاء في الأغاني أنها دخلت على الحجاج فإذا هي "امرأة طويلة دعجاء العينين حسنة المشية إلى الفوه وهي حسنة الثغر"²⁰ ويورد الأصفهاني الخبر مطولاً ثم يختمه بسؤال الحجاج جلساه عن ليلي بعد أن تفرغ من قول الشعر "فقال لهم: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله ما رأينا امرأة أفصح ولا أبلغ منها ولا أحسن إنشاداً. قال: هذه ليلي صاحبة توبة"²¹ فهذه البدوية طويلة تتصف عينها بالدعج، أي شدة سواد السواد في العين وسعتها²² وهي صفة محببة في المرأة والرجل عند العرب، ثم هي ممتشقة القوام حسنة المشية، أما قوله (إلى الفوه ما هي) فقد يكون مما أعمجهته أيدي النساء، وقد يكون المقصود نفي الفوه عنها، أي أن فمهما لم يكن واسعاً وقد يكون غير ذلك، ولكن قوله (حسنة الثغر) يثبت صفة جمالية جديدة فيها، وتتنمّي الخبر قد أتت على ذكر صفات أخرى لها تميل إلى وصف الناحية المعنوية، فهي امرأة فصيحة بليغة حسنة الإنعام.

يذكر أبو على القالي خبر ورودها على الحجاج برواية مختلفة يرد فيه أنها أست²³ "... فنظرت فإذا هي امرأة قد أست²⁴، حسنة الخلق ومعها جاريتان لها وإذا هي ليلي الأخليّة، فسألها الحجاج عن نسبيها فانتسبت... ثم أقبل الحجاج على جلسائه، فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أنها الأمير، إنّا لم نرقط أفصح لساناً، ولا أحسن محاورة، ولا أملح وجهًا، ولا أرضن شعراً منها: فقال: هذه ليلي الأخليّة التي مات توبه الخفافي من حُّبها".

إنّ سُنّ هذه المرأة المتأخرة لم تفقدها جمالها ورونقها فهي حسنة الخلق على الرغم من كبر سُنّها البادي للعيان، ولنا أن نثبت من ذلك أنها كانت في شبابها من الجميلات وقد زاد جلاء الحجاج، في هذه الرواية، إلى ملاحة الوجه الظاهرة فيه فصاحة اللسان وحسن المعاورة ورصانة الشعر.

ولعلّ الصفات التي يذكرها الحصري في (زهر الآداب) لليلى هي تكرار مع بعض التغيير للصفات السابقة، فالخبر عند الحصري ما هو إلاّ رواية ثالثة للخبر السابق فلم تثبت أن جاءت جارية من أجمل النساء وأكمليهن وأتمهن خلقاً، وأحسنهن محاورة، فلما دنت سلمت ثم قالت: أتأذن أهياً للأمير؟ قال: نعم فأنشدت: (الأبيات) حتى أتت على آخرها. فقال الحاجاج لمن عنده: أتعرفون من هذه؟ قالوا: ما نعرفها، ولكن ما رأينا امرأة أطلق لساناً منها ولا أجمل وجهها ولا أحسن لفظاً، فمن هي، أصلح الله الأمير؟ قال: هي ليلي الأخيلية؛ صاحبة توبة بن الحمير²⁴.

قصة توبة وليلي الأخيلية:

قصة توبة وليلي الأخيلية، واحدة من مجموعة كبيرة من قصص الحب التي عرفتها كتب العشاق من الشعراء، وقد نشأت ليلي منذ صغرها مع ابن عمها توبة بن الحمير الذي كان هو الآخر شاعراً رقيق الحس، فعشقاً بعضهما بعضاً. كان معظم شعرها حول حمها الوحيد لابن عمها، الشاعر توبة بن الحمير الذي خطّ لها من أبيها، ولكن والدها عارض زواجهما لذيع قصة حمها بين القبائل ولأن الزواج في مثل هذه الحالة يعد بمثابة إقرار بوجود علاقة بين الاثنين. ولكن ذلك قام والدها بتزويجها من أبي الأذل لإخراج الألسن²⁵ ولكن زواج ليلي، لم يمنع توبة من زيارتها وكثُرت زياتها لها. وكان توبة إذا أتى ليلي خرجت له ببرقع. فلما اشتهر أمرهما اشتكته إلى الأمير، فأهدى السلطان دم توبة إذا عاود زيارتها²⁶

فأخذوا يترصدون قدمه وهم ينونون قتله. وذات يوم علمت ليلي بمجيء توبة لزيارةها المعتادة، فخرجت للقائه سافرة وجلست في طريقه، فاستغرب خروجها بدون البرقع، ولكنه فطن إلى أنها أرادت تحذيره مما كان يبيّن له، فامتطى جواده وابتعد، وكانت ليلي السبب في نجاته. وفي هذا يقول توبة:²⁷

وكتت إذا ما جئت ليلي تبرقعت----- فقد رابني منها الغداة سفورها
عليّ دماء البدن إن كان زوجها----- يرى لي ذنباً غير أني أزورها
 وإنّي إذا ما زرتها قلت يا اسلمي---- فهل كان في قوله اسلامي ما يضيرها
ولكنه قتل بعد رجوعه من عند ليلي لأنّه أخذ إبلًا لبني عوف ولكن بنى عوف أدركوه وقتلوا
توبة. ولما علمت ليلي بمقتل الذي ملك عليها قلبها وعقلها حزن حزناً شديداً وخيمت الأحزان على
نفسها، وبكته بكاءً مريضاً وأغلقت عليها بآها حزناً على، توبة وقد أطلّت الرثاء عليه فقالت²⁸
فإن تكن القتلي بواء فإنكم----- فتى ما قتلتكم آل عوف بن عامر!
فتى كان أحيا من فتاة حبيبة----- وأشجع من ليث بخفان خادر
أنته المنايا دون درع حصينة----- واسمراً خطى وجرداء ضامر
فننعم الفتى إن كان توبة فاجرا----- وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

زواج ليلى:

تزوجت ليلى مرتين، وكان زواجهما الأول من الأذلع ومن أهم صفات زوجها الأول أنه كان غيوراً جداً، وبعض القصص تقول أنه طلقها لغيرته الشديدة من توبة، وتزويق قصص أخرى أنه مات عنها. أما عن زوجها الثاني فهو سوار بن أوفى القشيري الملقب بابن الحيا. وكان سوار شاعراً مخضرماً من الصحابة ويقال أنها أنجبت العديد من الأولاد.

وفاتها:

أما وفاتها، فيروى أنها حين قدمت يوماً من سفرها "ومرت قافلتها بجنب قبر توبية بعد مقتله، وأرادت زيارة قبر توبية ومعها زوجها الذي كان حاول منها، ولكنها قالت: والله لا أبح حتى أسلم على توبية فلما رأى زوجها إصرارها تركها تفعل ما تشاء. فوقفت أمام القبر وقالت: (السلام عليك يا توبية)! ثم قالت لقومها ما عرفت له كذبة قط قبل هذا. فلما سألوها عن ذلك أجبت: "اليس هو القائل":²⁹

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت-----على ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا----إليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لم يسلم علي كما قال؟! أو قد كانت إلى جانب القبر (بومة) طارت في وجه الجمل حين رأت الهدوج، فاهتز الجمل وأصاب رأس ليلى فسقطت على رأسها فماتت لوقتها، فدُفنت هنالك على مقربة/ قرب قبر توبية الذي كان أحب الناس إليها، وأقربهم إلى روحها!! وكان ذلك سنة: 85هـ/705 م³⁰ بمنطقة تسمى: الري. وقيل أنها توفيت سنة 86 هـ³¹ وقيل توفت في سنة 706 م³²

شاعريتها:

وللأخيلية آثار شعرية مبثوثة في كتب الأدب تدور حول أغراض مختلفة. وكان شعرها هو الشعر النسائي الخالص، المرهف العاطفة السلس الكلام، الذي يجمع رقة العاطفة ورقعة اللفظ إلى جانب قوة السبك. وهي بعد الخنساء من كبريات شاعرات العرب. والنااظر في شعرها وشعر الخنساء يرى أن شعر الخنساء يكاد يخلو من الخيال ومن الحكم، واقتصرت أشعارها على موضوع واحد بالإضافة إلى تكرار المطالع والألفاظ. أما ليلى فقد أجادت في اختيار مطالع قصائدها، وجزالة ألفاظها وتعدد الأغراض الشعرية لديها من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء. كما عرف عنها، إيراد الحكم والأمثال باستمرار. ومن ذلك قولها:³³

ولا تقولن لشيء سوف أفعله-----قد قدر الله ما كل امرئ لاق

وكانت ليلى مبرزة في مفاخرتها بقومها. وتقول في وصفها لمعارك دارت بين قبيلتها وبني مذحج

وهمدان:³⁴

نحن الأخايل لا يزال غلامنا-----حتى يدب على العصا، مشهوراً

تيكي الرماح إذا فقدن أكفنا-----جزعاً، وتعربنا الرفاق بحوراً

وقد اشتهرت ليلي بالتألق اللغطي، وجزالة مفرداتها والتكرار المتقن، بعيداً عن التكلف والتعقيد، مما يكسب أبياتها جرساً موسيقياً مستحباً، وكانت تكثر من استخدام الطياب، كما في قوله:³⁵

فوارس أحلى نشأها عن عقيرة-----لعاقرها فهمها عقيرة عاقر
والقصد بعقيرة عاقر إن-----توبه أعظم الناس جميعاً

وأغلب القدماء أشادوا بأن ليلي، الأخيلية شاعرة فاقت أغلب الفحول من الشعراء، وشهدوا لها بالفصاحة والإبداع. وبعدهم كان يقدمها على الخنساء عندما كان أشرف قريش مجتمعين في مجلس يتذاكرون الخنساء والأخيلية ثم أجمعوا أن الأخيلية أفحصهما، وإن ليلي أكثر تصرفاً وأغزر بحراً وأقوى لفظاً ولكن الخنساء أغلب قصائدها الرثاء.

كما أن الكثير من الشعراء كانوا يعتبرون، شعرها من أفضل ما أنتجته تلك المرحلة المهمة في التاريخ الأدبي، ومنهم الفرزدق الذي فضل ليلي على نفسه، وأبو نواس الذي حفظ العديد من قصائدها، وأبو تمام الذي ضرب بشعرها المثل، وأبو العلاء المعري الذي وصف شعرها بأنه حسن ظاهره.

قال أبو العباس المبرد في كتابه المشهور الكامل:

"وكانت الخنساء وليلي باثنتين في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول من الرجال، ورب امرأة تتقدم في صناعة، وقل ما يكون ذلك. ويميل الأصمعي إلى تقديم ليلي الأخيلية على الخنساء"

³⁶"

وبالموازنة بين ليلي والخنساء، نتبين أن كثيراً من الأدباء رجّعوا شاعرية ليلي، فيما عدا ابن قتيبة الذي قدم عليها الخنساء، ومن أبرز الأئمة الذين آثروها بالتنويع الأصمعي. وذكر أبو سعيد الأنصاري:

"أن ليلي الأخيلية أغزر بحراً وأكثر تصرفًا، وأقوى لفظاً، والخنساء أذهب في عمود الرثاء"³⁷
وذكر صاحب الأمالي:

"أن أبو نواس كان يحفظ شعر ليلي، وأن الفرزدق كان يقدمها على نفسه"³⁸

وقد رثت ليلي الأخيلية توبه في قصائد متفرقة، نختار منها هذه الأبيات التي ترثي فيها توبه وتعدد بعضها من مكارمه:

كُمْ هَاتِفِ بِكَ مِنْ بَالِكِ وبَاكِيَة-----يَاتُوبُ لِلْحَسِيفِ إِذْ تُدْعَى وَلِلْجَارِ
وَتُؤْتُبُ لِلخَصِيمِ إِنْ عَدَلُوا-----وَبَدَلُوا الْأَمْرَ نَفْضًا بَعْدَ إِمْرَارِ
إِنْ يُصِدِّرُوا الْأَمْرَ نُطْلَعُهُ مَوَارِدُه-----أَوْ يُورِدُوا الْأَمْرَ تُحلَّهُ بِإِصْدَارِ³⁹

وقالت ليلي الأخيلية "ترثي توبه رثاءً عاطفيًا صادقاً، نافية أن يكون الموت عاراً، وقد تناولت عبر هذا الرثاء، غير قليل من خواطرها في الحياة، مركزة على الشيم الخلقيه" وفضائل النفس:

أَقْسَمْتُ أَرْثَى بَعْدَ تَوْبَةَ هَالِكًا-----وَاحْفَلَ مَنْ دَارَثُ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ
لَعْمَرْكَ مَا بِالْمُمْتَ عَارٍ عَلَى الْفَقْتِ-----إِذَا لَمْ تُصْبِهِ فِي الْحَيَاةِ الْمُعَايِرُ

وَمَا أَحَدٌ حَيَا إِنْ عَاشَ سَالِماً.....بِأَخْلَدَ مِمْنُ غَيْبَتِهِ الْمَقَابِرُ

وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ جَدِيدٍ إِلَى بَلِيٍ.....وَكُلُّ أَمْرِئٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرٌ⁴⁰

قال أبو الفرج الأصفهاني:

"سأَلَ معاوية بن أبي سفيان ليلى الأخِلية عن توبَةِ بن الحَمِير، فَقَالَ: ويحك يا ليلى! أَكَمَا يَقُولُ النَّاسُ كَانَ توبَةً؟ قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ كُلُّ مَا يَقُولُ النَّاسُ حَقًا، وَالنَّاسُ شَجَرَةٌ بَغَى يَحْسُدُونَ أَهْلَ النَّعْمٍ حِيثُ كَانُوا، وَعَلَى مَنْ كَانَتْ، وَلَقَدْ كَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَبْطَ الْبَنَانِ، حَدِيدُ الْلِّسَانِ، شَجَاءُ الْأَقْرَانِ، كَرِيمُ الْمَخْبَرِ، عَفِيفُ الْمَتَزَرِ، جَمِيلُ الْمَنْظَرِ، وَهُوَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَلْتُ لَهُ". قَالَ: وَمَا قَلْتُ وَلَمْ أَتَعِدْ"⁴¹ الْحَقُّ وَعِلْمِي فِيهِ:

بَعِيدُ الرَّى لَا يَبْلُغُ الْقَوْمُ قَعْدَهُ.....أَلَدُ مُلْدَدُ يَغْلِبُ الْحَقَّ بِاطْلُهُ

إِذَا حَلَّ رَكْبٌ فِي ذَرَاهُ وَظِلَّهُ.....لِيَمْنَعُهُمْ مِمَّ تُخَافُ نَوَافِلُهُ

حَمَاهُمْ بِتَنْضِلِ السَّيْفِ مِنْ كُلِّ فَادِحٍ.....يَخَافُونَهُ، حَتَّى تَمُوتَ خَصَائِلُهُ

فَقَالَ معاوية: ويحك ايزعم الناس أنه كان عاشرًا خاربا!(الص)⁴²

فَقَالَتْ مِنْ سَاعَتِهَا:

مَعَاذُ إِلَيْيِ كَانَ وَاللَّهُ سَيِّدُ.....جَوَادًا عَلَى الْعَلَاتِ جَمَّاً نَوَافِلُهُ

أَغْرَى حَفَاجِيًّا يَرِي الْبُخْلَ سُبَّهُ.....تَخَلُّبُ كَفَاهُ النَّدَى وَأَنَامَلُهُ

عَفِيفًا بَعِيدَ الْهِمِّ صُلْبًا قَنَاتُهُ.....جَمِيلًا مُحِيَّا قَلِيلًا غَوَثُهُ

فَقَالَ لَهَا معاوية:

"ويحك يا ليلى! لقد جُرْتَ بِتوبَةِ قَدْرِهِ! فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ رَأَيْتَهُ وَخَبَرْتَهُ لَعْرَفْتَ

أَنِّي مَقْصُرَةٌ فِي نَعْتِهِ، وَأَنِّي لَا أَبْلُغُ كَنْهَ مَا هُوَ أَهْلُهُ" فَقَالَ لَهَا معاوية: مَنْ يَأْتِي الرِّجَالَ كَانَ؟

فَقَالَتْ:⁴³

أَتَتْهُ الْمَنَى يَهِيَّا حِينَ تَمَّ تَمَامُهُ.....وَأَقْصَرَ عَنْهُ كُلُّ قِرْنٍ يُطَاوِلُهُ

وَكَانَ كَلِيَّ الْغَابِ يَحْمِي عَرِينَهُ.....وَتَرْضَى بِهِ أَشْبَالُهُ وَحَلَائِلُهُ

غَضُوبٌ حَلِيمٌ حِينَ يُطَلِّبُ حَلْمَهُ.....وَسِمُّ زُعَافٍ لَا تُصَابُ مَقَاتِلُهُ

فَقَالَ: فَأَمْرَلَهَا بِجَائِزَةِ عَظِيمَةٍ⁴⁴

وَلَعِلَّ هَذِهِ الْمَنَاظِرَةُ تَوْضِحُ، بِدَاهَةِ الشَّاعِرَةِ، فَإِجَابَاتِهَا كَانَتْ حَاضِرَةً، فَضَلَّاً عَنْ جَمَالِ أَسْلُوبِهَا،

وَفَصَاحَةُ لِسَانِهَا، وَكَانَتْ تَقْرَأُ مَا فِي ذَهَنِ الْخَلِيفَةِ وَقَلْبِهِ. هَذَا، وَلَهَا قَصَّةُ مَعِ الْحَجَّاجَ بْنِ يَوسُفَ

الْثَّقِيفِيِّ، حِينَ مَدَحَتْهُ بِقَوْلِهَا:

أَحَجَّاجٌ إِنَّ اللَّهَ أَعْطَالَكَ غَايَةً.....يُقْصَرُ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مَدَاهَا

أَحَجَّاجٌ لَا يُقْلِلُ سِلَاحُكَ إِنَّمَا الـ.....مَنَى بِكَفِ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاها⁴⁵

فَقَالَ الْهَبِيشُ:

"فذكرت هذا الحديث لإسحاق بن الجصاص فكتبه عني، ثم حدثني عن حماد الروية فرغت
ليلى من شعرها أقبل الحجاج على جلسائه فقال لهم: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله ما
رأينا امرأة أفتح ولا أبلغ منها، ولا أحسن إنشاداً. قال: هذه ليلى صاحبة توبة"⁴⁶
هي الشاعرة المعروفة التي كثيراً ما ألحّ عليها الشعراء أن تكون حكماً بينهم، وناددة لشعرهم
منتظرين منها المفضلة التي تطلع بها عليهم.

ومن الشعراء الذين ارتصوا أن تكون حكماً بينهم: حميد بن ثور الهلالي، والعجير السلوبي،
ومزاحم العقيلي، وأوس بن غلفاء الهمجي، فقد حكموها في شعر وصفوا فيه القطا، فحكمت للعجير
السلوي، وقالت:

ألا كلُّ ما قال الرواُه وأنشدوا-----،
فأثار حكمها هذا حفيظة حميد بن ثور الذي راح يهجوها فيما بعد، مما يدل على اعتداده
بحكمها وخطورة دورها النبدي"⁴⁷

الهوامش والمصادر

- ¹ جمهرة النسب، ابن السائب الكلبي، تحقيق: د. ناجي حسن، ص 340، عالم الكتب، مكتبة الهرمة العربية، ط 1، بيروت 1986م، وفحولة الشعراء، الأصمعي، تحقيق: ش. توري، تقديم: صلاح الدين المنجد، ص 17، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت 1971م
- ² الفهرست، ابن النديم، ص 161، دار المعرفة بيروت 1978م، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص 164، ط 3، دار الفكر بيروت 1980م
- ³ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ص 445، دار المعارف، ط 2، مصر 1958م
- ⁴ جمهرة النسب، ص 340
- ⁵ بلالات النساء، ابن طيفور، صحّحه وشرحه أحمد الألفي، ترجم للمؤلف وأعد الفهارس د. محمد أبو الأجنان، ص 17، ط 2، المكتبة العتيقة تونس 1985م
- ⁶ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ص 1/204، دار إحياء التراث العربي بيروت د.ت.
- ⁷ معجم الشعراء، المرزباني، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ص 167، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1960م
- ⁸ زهر الأدب وثمر الألباب، الحصري القبرواني، شرح: د. ذكي مبارك، ص 998، ط 4، دار الجيل بيروت د.ت.
- ⁹ جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندرسي، ص 291، ط 1، دار الكتب العلمية بيروت 1982م
- ¹⁰ ديوان ليلى الأخيلية، عُنِي بجمعه وتحقيقه خليل إبراهيم العطية وجليل العطية، ص 18، ط 1، دار الجمهورية بغداد 1967م
- ¹¹ نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ص 406، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة 1959م

- ¹² جمهورة النسب، ص 339 (الهزار) معجم الشعراء، ص 230 (الهزار) الأغاني، ص 11/204 (الهزار).
- ¹³ جمهورة أنساب العرب، ص 291
- ¹⁴ تاريخ الأدب العربي، الدكتور عمر فروخ بيروت: دار العلم للملايين، 1984، الطبعة الخامسة بيروت-لبنان ص 517/1
- ¹⁵ تزيين الأسواق في أخبار العشاق، دواد الأنطاكى، دار ومكتبة الهلال، ط 2، ص 185، بيروت 1986 م
- ¹⁶ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت، ص 150، الطبعة الاولى 1353هـ-1934م، للمكتبة الأهلية، بيروت
- ¹⁷ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص 1/360، وديوان Lily الأخيالية، Lily الأخيالية، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت: شركة دار الأرقام للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت. ص 91
- ¹⁸ بلاغات النساء، ص 147
- ¹⁹ زهر الأدب وثمر الألباب، ص 1008
- ²⁰ الأغاني، ص 247/11
- ²¹ ايضاً: ص 249/11
- ²² لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر بيروت د.ت. مادة (دعج)
- ²³ الأمالي، أبو على القالي، ص 86-87. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الجليل ودار الآفاق الجديدة، ط 2، بيروت 1987 م
- ²⁴ زهر الأدب وثمر الألباب، ص 1005-1006
- ²⁵ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص 251. تاريخ أداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ص 1/345
- ²⁶ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص 1/515
- ²⁷ ظرف الشعراء (6): Lily الأخيالية، <http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=15094>
- ²⁸ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص 1/517-518
- ²⁹ تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص 251
- ³⁰ موسوعة شعراء العرب، د. يحيى شامي، ص 1/396، بيروت: دار الفكر العربي، 1999، الطبعة الأولى
- ³¹ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص 1/516
- ³² <http://home.infionline.net/~ddisse/laila.html>
- ³³ الشاعرة الرحالة Lily الأخيالية من شواعر العصر الأموي، مريم عبد الله محمد
- ³⁴ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ص 1/517
- ³⁵ الشاعرة الرحالة Lily الأخيالية من شواعر العصر الأموي، مريم عبد الله محمد
- ³⁶ تاريخ الأدب العربي، الدكتور عمر فروخ، ص 1/516
- ³⁷ ديوان أبي تمام، محمد بن عبدالله الخطيب التبريزى، تحقيق: محمد عبد عزام، ص 1/135، القاهرة: دار المعارف، 1942 م
- ³⁸ الأمالي، ط 1، ص 58/1

- ديوان ليلي الأخيلية، ص 77³⁹
- ايضاً: ص 77-78 والشعر والشعراء، ص 1/361⁴⁰
- الأغاني، ص 11/237، زهر الأداب، ص 2/932⁴¹
- ديوان ليلي الأخيلية، ص 76⁴²
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 146⁴³
- زهر الأداب، ص 932⁴⁴
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص 148⁴⁵
- ديوان ليلي الأخيلية، ص 51⁴⁶
- الأغاني، ص 16/21⁴⁷